الفصل الخامس

بحوث أدبية

١ — روائع الأدب المصري القديم

٢ — اللغة القبطية

obeikandl.com

روائع الادب

المصري القديم

المصريون من أقدم أمم الأرض عراقة في المجد ورسوخاً في المدنية . فقد استوطنوا وادي النيل قبل ميلاد المسيح بما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة تقريباً ، وأقاموا الحضارة العظيمة التي بهرت أنظار العالم القديم وظلت مزدهرة حقباً طويلة من الزمن .

وان آثارها الباقية حتى اليوم من أقدم المخلفات التي تركها الانسان الأول وليس من شك في أن المصري القديم قد صاغ تراثه الفكري في المؤلفات الأدبية بأسلوب جميل لا يدانيه ما ورثه أي شعب آخر من أسلافه .

ومن المؤلفات الأدبية الفرعونية ما يتصل بالآداب الدينية ، ومنها ما يتصل بالآداب الدنيوية . وسأقصر كلامي على دراسة الآداب الدنيوية في عصور وحدة مصر الزاهرة وعلى بعض عصور تفكك الوحدة .

كانت الآداب الدنيوية في عصور وحدة مصر الزاهرة تقوم إما على نوع من الأدب العلمي الذي وصل إلينا في شكل حكم أو أمثال ، وإما على نوع آخر يعرف بالغزل ، وإما على نوع ثالث يعرف بالأدب القصصي .

فمن أنواع الأدب العلمي الذي وصل إلينا كالحكم والأمثال تعاليم الوزير بتاح حتب والوزير كاجمني من عصر الوحدة الأولى ، وكتعاليم آني وإمن — إم — اوبي من عصر الوحدة الثالثة . وأما من عصر الوحدة الثانية فلدينا حكم وتعاليم من الملك امنمحات الأول لولي عهده سنوسرت .

وهي كلها تعاليم موجهة للشباب في قالب نصائح إلى أبناء الكتاب السابق الذكر ، لتقويم أخلاقهم ودعوتهم للفضيلة وعمل الخير وحسن السلوك . وهاك مقتطفات من روائع تلك التعاليم : —

أولاً — التمسك بالصدق

« إذا كنت قائداً آمراً فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص في طبيعتك فإن الصدق جميل وقيمته خالدة — بتاح حتب »

« إن السكين ترهف لمن يحيد عن الصدق — كاجني »

« قل الحق أمام القاضي — إمن — إم — اوبي »

ثانياً — أدب السلوك في الضيافة

« إذا هيىء لك الجلوس على مائدة من هو أكبر منك مقاماً فخذ ما يقدم لك مما هو أمامك ولا تنظرن الى ما وضع أمامه ، بل انظر الى ما وضع أمامك — بتاح حتب »

« إذا جلست مع أناس كثيرين فانظر الى الطعام في غير شره أو اهتمام حتى وان كنت تشتهيه، فان ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة، وانه لمن العار أن يكون الانسان شرهاً فقدح ماء يروي الغلّة — كاجني »

ثالثاً — التحذير من النساء

« إذا أردت ان تحتفظ بالصداقة لسيد أو أخ أو صاحب دخلت داره فاحذر الدنوّ من النساء فآلاف من الرجال ذهبوا ضحيتها — بتاح حتب »

« هل حدث أن النساء اصطففنَ في ميدان الحرب ؟ — امنمحات »

« خذ حذرك من المرأة الأجنبية تلك التي ليست معروفة في بلدتها ولا تغمزن لها بعينك — آني »

رابعاً — الحث على الزواج

« هيىء لنفسك داراً واحبب زوجتك واجلب لها الطعام واستر ظهرها وقدم لها العطور وابعث السرور في قلبها طيلة حياتك فهي حقل نافع لزوجها — بتاح حتب »

« اتخذ لنفسك زوجة وأنت لا تزال شابًّا لتنجب لك ولداً ، ويجب ان تنتجبه لك وأنت لا تزال صغير السن . فما أسعد الرجل الكثير النسل ، فانه يحترم بسبب أولاده — آني »

خامساً — التحرّي عن أخلاق الأصدقاء

« إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسأله ولكن اقترب منه وكن معه وامتحن قلبه بالمحادثة ، فاذا أفشى شيئاً قد رآه أو أتى أمراً يجعلك تخجل له فاحذر عندئذٍ حتى من أن تجيبه — بتاح حتب » .

سادساً — الولاء للعرش

« إن الولد النجيب يقيم الحق وسيكون الملك مرتاحاً لك في كل ما يجري فقد بلغت العاشرة بعد المائة وحباني الملك بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد لأني أقمت العدل للملك — بتاح حتب » .

سابعاً — سلوك الرئيس نحو مرءوسيه

« خذ الحذر من مرءوسيك ولا تثقن بأخ ولا تصطفين لك خلاناً لأن ذلك لا فائدة منه وعند ما تكون نائماً كن الحارس لنفسك — امنمحات » .

ومما خلفته مصر غير الأدب العمي الذي يبين مقدار تقدم التفكير البشري في هذه العصور السحيقة وما يقوم به من جهد في الفكر بجانب غزارة المادة العلمية فاننا نجد نوعاً آخر من الأدب يعرف بالغزل وقد رأينا عند الكلام على الموسيقى كيف أن الشاعر يصف في خياله الرائع انه كان مريضاً وعند ما استدعي الطبيب لعيادته جاءت حبيبته فزجرت الطبيب لأنها أعلم بداء حبيبها ودوائه .

هذا فضلاً عن نوع ثالث من الأدب يعرف بالأدب القصصي يمتاز بالوصف والخيال وتصوير البلاد النائية كسوريا وبلاد البنت (الصومال) التي قام الكتّاب برحلاتهم إليها . وهاك مقتطفات من هذا الأدب على سبيل المثال لا الحصر :

﴿ قصة الغريق ﴾ — يرجع تاريخها الى عصر الوحدة الثانية ، أراد كاتب هذه القصة أن يصوّر البلاد النائية التي كان يرتحل اليها وما فيها من عجائب فيقص انه كان مسافراً على ظهر سفينة إلى بعض الأصقاع الغنية بمعادنها ليؤدي رسالة ملكية ، وحدث أن هبت عاصفة فحطمت السفينة وغرقت بمن فيها ولم ينج إلا كاتب القصة بعد أن لاقى من الأهوال في بادىء أمره

ما لاقى حتى حملته الأمواج الى جزيرة فيها من عجائب المخلوقات ثعبان كبير له رأس إنسان .

ثمّ ذكر على لسان ذلك الثعبان أنه أخذ يقص له مجازفة حدثت له وتشبه مجازفة كاتب هذه القصة بعد ان استقبله أحسن استقبال ويقول أنّ سفينة مصرية مرت بالجزيرة وحملته إلى أرض الوطن بخير وسلام .

وبخلاف المظاهر التي امتاز بها الأدب في عصور الوحدة من حكم وأمثال إلى غزل وقصص ، نلاحظ أنّ نجاح سياسة ملوك عصور وحدة مصر ، ووحدة وادي النيل لم يؤثر بحسب في حياة البلاد الاقتصادية وزيادة الرخاء ، بل نجد نصوصاً أدبية تتحدث عن ورود الكثير من الخيرات .

ويرجع الفضل في هذا النجاح إلى عناية الملوك بشؤون الدولة وإسناد الوظائف والمراكز الهامة الى أشخاص يتمتعون بثقتهم إلى جانب كفاءتهم الممتازة . ومنهم من يتحدث فيشير إلى أنه كان صديق الملك فاستطاع أن يقوم بالمهام الموكولة إليه على الوجه الأكمل .

وطبيعي أن تبلغ البلاد أوج مجدها في عهود الوحدة بفضل التفاف الشعب حول مليك الوادي ملك مصر، وبفضل جيل الموظفين الذي عمل ملوك الوحدة على تنشئته ليلتف حول عرشهم وليكون لهم نصيراً ، فنرى هؤلاء الموظفين حريصين على بث روح الطاعة والمحبة لمليكهم بين ذويهم فيسردون لهم ما أنعم به عليهم فرعون مصر من تقدير ، بل ويشبهون عطفه عليهم بعطف الوالدين، واكثر من ذلك فقد شبّهوه بالإله على الأرض .

وبينما نرى النصوص الأدبية السالفة الذكر تبين لنا أن قوّة الوطن تكون على أتمها حين يلتفّ شعب الوادي حول عرش ملك مصر ، رمز الوحدة والاتحاد ، والقوة والضمان الأول والأخير لكل مواطن وهو السبيل الى نيل المطالب وبلوغ الآمال، نرى نصوص عصر تفكك الوحدة تبين لنا أن هنالك فوضى عامة امتدت الى كل نواحي الحياة المصرية كما أنّ نصوصاً أخرى من عصر تفكك الوحدة تبين ضياع هيبة مصر في الأقطار الأخرى فليس أدلّ على ما كانت تعانيه مصر في عصر تفكك الوحدة الأولى من فوضى من أن الآثار الأدبية التي أنتجها هذا العصر كانت صدى لتلك الفوضى فتحوي الكثير من الأفكار التي تتمخض عنها عادةً الثورات الاجتماعية والسياسية، ولنذكر مثالاً على ذلك نرى منه مناقشة بين رجل كره

الحياة وبين روحه وهي مكتوبة على بردية محفوظة الآن بمتحف برلين. وقد صور فيها كاتبها رجلاً بائساً مثقلاً بهموم عصره لم يجد غير روحه يشكو اليها مصابه ، فأظهر لها رغبته في أن يضع حدًا لحياته بأن يحرق نفسه . وقد ألحت روحه في أن يخطو هذه الخطوة ولكنها امتنعت عن مرافقته في الانتحار لأنها خشيت أن يسوء مصيرها مع شخص فقير مثله لا قبر يأويه ، ولا خلف يقدمون له القرابين فتكون النتيجة أنها تصبح مهددة بالجوع والبرد والحر ، ولكن بعد محاولات نجح الرجل في النهاية وأقنع روحه بالاندماج معه عند الموت ثم أحرق نفسه ومات .

وهناك نصوص وصلت الينا في أناشيد شعرية [١] منها : —

« الى من أتكلم اليوم ، الاخوان شرٌّ وأصدقاء اليوم ليسوا محبين

« الى من أتكلم اليوم ، الناس يسرقون وكل انسان يغتصب متاع غيره

« الى من أتكلم اليوم ، اني مثقل بالهموم وفي حاجة إلى صديق وفيّ

« إلى من أتكلم ، الرذيلة تضرب الأرض وليس لها نهاية »

وهناك نصوص معروفة بأغاني العواد منها : —

« امض اليوم في سعادة وحبور ، وانظر فلا أحد يستطيع أن يأخذ متاعه معه ، وانظر فليس من يستطيع العودة للحياة ثانية » .

فهذه الجمل الصغيرة تدلنا على ما تطرّق الى المصريين من الشك في تقاليدهم وعقائدهم وحتى في عقيدة الخلود ، كما تدلنا على اتجاه المصري الى التمتع بالحياة المادية .

فبينما كانت النصوص السابقة تبين لنا الفوضى التي امتدت الى كل نواحي الحياة المصرية في عصر تفكك الوحدة الأولى ، نجد أن قصة ونآمون تبين ضياع هيبة مصر في الأقطار الأخرى في عصر تفكك الوحدة الثالثة بعد أن كانت مصر متمتعة بسلطان واسع في عصور الوحدة بين أمم الشرق القديم .

(١) يمتاز الشعر بأوزان خاصة .

اللغة القبطية

نشأتها وتطورها

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية — نشأتها وتطوّرها — يجدر بنا أن نعرض لهذا اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقه لأن البحث عن أصل الكلمة يميط اللثام عن معالم كثيرة تنير الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ . فلفظ (قبطي) نسبة الى (قبط) . وهنا نرى ياء النسبة العربية . أما كلمة (قبط) فهي تحريف لفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعد حذف السابق (أي) واللاحق (وس) وبقيت كلمة — جبط — بالجيم المعطشة التي تنطق عادة (ق) ، لذلك كتبت الكلمة بها أي (قبط) بمعنى مصري . ولا شك في أن يونانية هذا اللفظ الخاص بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان ، فالتاريخ يحدثنا ، والآثار تؤيده ، على ان العلاقات اليونانية المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر الوحدة الثالثة (١٥٨٠ — ١٠٨٥) ق . م . وذلك ان بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم .

وأخذت هذه الصلة تنمو تدريجيًّا حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر . وبعد دخول قمبيز عاهل الفرس البلاد نزح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علماء اليونان ومفكريهم الذين عنوا بدراسة تاريخ مصر وآثارها ودينها وأخلاق أهلها ، نذكر منهم هيرودوت المؤرخ وأفلاطون الفيلسوف وهوميروس الشاعر وارفيوس الموسيقي وغيرهم . وهكذا أصبحت مصر كعبة القصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى ان (بسماتيك الأول) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين وأول ملك من ملوك عصر الوحدة الرابعة منح الجالية اليونانية جزاء المساعدة التي قدّمها له جنود

اليونان بعض الاحياء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم، كالحيّ الخاص باليونانيين في بلدة منف وفي بلدة دفنة . ثم في عصر الملك أحمس الثاني خصصت لهم مدينة (نوقراتيس) وموقعها الحالي بالقرب من صفط الملوك .

لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بقدوم الاسكندر ويرسم كهنة آمون له ابناً لكبير آلهتهم آمون ومنحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة . توفي الاسكندر وورثه البطالمة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية الى جانب القبطية .

وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعدّت العلاقات الثقافية الى السياسة إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة (٣٣٢ ق . م . الى ٣٠ ق . م .) . وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني ، وكافية أيضاً لأن يلمس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، فبينما الكتابة اليونانية ، وان كانت من أصل مصري ، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت، إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة . لذلك شعر المصريون بالحاجة القصوى الى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة الى الأبجدية اليونانية التي كان المصريون قد أخذوا في استعمالها بخاصة في كتابة أسماء الأعلام . ثم قاد هذه الحركة فيما بعد العالم الاسكندري (بونتينوس) وتلاميذه المصريون حوالي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني للميلاد. فقد نقحوا الاملاء القبطي وكتبوا اللغة في الأبجدية اليونانية البالغ عدد حروفها أربعة وعشرين ، وأضافوا اليها سبعة حروف وهي (شاي وفاي وخاي وهورى وجنجا وكشيماوتي) أخذت من الديموطيقية لعدم وجود أصواتها في اليونانية . ثم أضافوا حرفاً آخر وهو (صو) الذي يستعمل للدلالة على العدد « ٦ » كما هو الحال في اليونانية . ومن حسن الحظ أن حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع الى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد أيام حكم نيرون على يد القديس مرقس عام ٥٤ م

ومن أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعها العلامة (جريفث) [١] والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره (ارمان) [٢] فهذان النصان يعالجان أموراً تتصل بالسحر والفلك لا علاقة لها بالمسيحية بتاتاً . ففي البردية الأولى نجد ذكراً لنجم السعد ، وآخر لنجم النحس ، كما يوجد في النصين دعاء الى اوزيريس إله الموتى ، وانوبيس إله التحنيط ورع وايزيس . وغير هذه الكتابات عثر في اخميم على بطاقات المومياء يرجع تاريخها الى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الامبراطور هدريان وقد نشرها (شتيندورف) [٣] .

وكلما تقدم بنا العهد نجد المسيحية تتثبت في مصر فتهوم أمامها الوثنية ويضطر الامبراطور قسطنطين الى الاعتراف بها ديناً رسمياً له وللدولة حوالي عام ٣٢٥ م . وحوّل خلفه بعض المعابد المصرية القديمة الى كنائس ، كما أغلق الباقي منها . ثم جاء الامبراطور (جوستنيان) فأرسل قائده (نرسيس) الى جزيرة الفيلة حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس وأوزوريس . وهكذا ترى المسيحية تعوز بعد أن قدمت من ابنائها الشهداء الكثيرين أيام حكم (دوقلسيان) حوالي عام ٣٨٤ م . فأصبحت مصر بعد ذلك معقلاً للمسيحية ووطناً للديورة والرهبنة ، واستطاع الأقباط أن يخلقوا فنّاً قبطياً متأثراً باليوناني حيناً وبالفرعوني حيناً آخر .

* * *

أما اللغة القبطية وآدابها فقد استمرّت حيّة حتى القرن العاشر الميلادي بدليل أننا نجد الاسقف ساويرس بن المقفع يقول ما معناه إنّ القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما اننا نعرف من جهة أخرى أنّ كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية . وظلّت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى

---

(١) F. L. L. Griffith, The old Coptic Horoscope of the Stobar Collection, Aeg. Z. 38, pp. 71—85

(٢) A. Erman, Die aeg. Beschwoerungen des grossen Pariser Zauberpapyrus, Aeg. Z. 1883, p. 89

(٣) Steindorff, Aeg. Z. 1890. p. 49 : Die Mumien Etiketten

عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان . الذي أحلّ العربية محلها سنة ٧١٤ م . ولما كانت سنة ٩٩٧ م قام الحاكم بأمر الله بن عبد العزيز أحد ملوك الفاطميين وأمر بإبطالها لغة حية . واللغة القبطية كغيرها من اللغات تنقسم الى لهجات . وقد ظهر ذلك جليًّا عند استخدام الأبجدية اليونانية لاستخدام الحروف الصائتة الى جانب الصامتة (المتحركة والساكنة) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط . ونحن نستطيع أن نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع أن نجزم بوجود أكثر من لهجتين في العصر الفرعوني . وأشهر اللهجات القبطية هي :

أولاً — البحيرية التي كانت أصلاً لهجة الاسكندرية عاصمة مصر الرسمية ، أيام اليونان والرومان ، وما جاورها في الوجه البحري . ومما زاد في انتشار هذه اللهجة انتقال بطاركة الاسكندرية الى (بابلون) أي الفسطاط أو مصر القديمة ، ثم الى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للكنيسة . وما تزال هذه اللهجة مستعملة الى اليوم فقط في العبادات في الكنائس الأرثوذكسية وبين قليل من الأسر ، ويلاحظ أنها أكثر اللهجات تأثراً بالمفردات اليونانية لقربها من مواطن الثقافة اليونانية .

واننا لا ننكر ان هناك بعض كلمات دخيلة يونانية في اللغة القبطية ولكن هذه الظاهرة ظاهرة دخول كلمات أجنبية في اللغة المصرية القديمة نجدها في عصر وحدة مصر الثالثة . فبعد غزوة الهيكسوس لمصر دخلت كلمات كنعانية كثيرة في اللغة المصرية القديمة وهذا لم يخرج اللغة عن صفتها المصرية .

ثانياً — اللهجة الصعيدية وهي لغة أهل طيبة (الأقصر) ومعظم سكان الصعيد الأعلى

ثالثاً — اللهجة الأخميمية وهي خاصة بأهل اخميم وأقرب اللهجات الى المصرية القديمة وأبعدها تأثراً بمفردات اللغة اليونانية . وذلك لبعدها عن الأوساط الأجنبية .

رابعاً — اللهجة الفيومية وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان .

***

هذه نظرة عاجلة عرضت فيها للغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت أن لفظ «قبطي» هو اسم يطلق على أبناء مصر مسيحيها ومسلميها .

ونذكر هنا حقيقة يجهلها بعض العلماء إذ يظنون أن آداب اللغة القبطية دينية محضة . والواقع غير ذلك ، فهي الى جانب ما حفلت به هذه الآداب من سِيَر القديسين والبطاركة والأناجيل لم تقف عند الجانب الديني فحسب بل تناولت الجانب الدنيوي .

فهناك نصوص تتعلق بالتاريخ وبالقانون كعقود البيع أو الميراث وبالرسائل والصكوك وما يختص منها بالضرائب أو التجارة ، كما ان هناك نصوصاً دنيوية أخرى تتصل بالفلك والسحر والطب (١)

وهنا أرى أن من الصواب تسمية اللغة القبطية باللغة المصرية القديمة في آخر مرحلة من مراحل تطوُّرها وإن كانت مكتوبة بالخط القبطي الذي هو مزيج من الأبجدية اليونانية والديموتيكية ، فأمامنا مثلٌ في العصر الحديث هو أن اللغة التركية في حالتها الأولى وهي كتابتها بالحروف العربية ، والثانية وهي كتابتها بالحروف اللاتينية لم يمنع ذلك من إطلاق اسم التركية عليها .

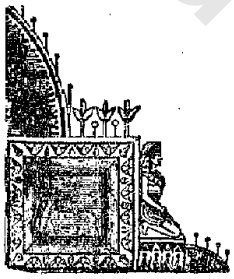

(١) نجد أيضاً أصول اللغة القبطية متشعبة من العصر الفرعوني فئات من المفردات القبطية التي يستعملها المصري في التعبير عن حاجة الفرد في حياته اليومية من مأكل وملبس ومشرب وما الى ذلك من مرافق الحياة في الزراعة وغيرها ترجع أصولها الى اللغة الفرعونية المصرية ، كما ان أصول نحو اللغة القبطية كأدوات التذكير والتأنيث والضمائر ترجع الى نحو وأجرومية اللغة المصرية الفرعونية